دور الجمعيات الإصلاحية والنوادي الثقافية
في مجابهة السياسة التعليمية في عدن
خلال تبعيتها للهند (١٨٣٩-١٩٣٧)

الأستاذ سلطان ناجي

عضو مجلس الشعب الاعلى باليمن الديمقراطية

لقد كانت عدن اول منطقة في الجزيرة العربية تتعرض للغزو الاجنبي وتصبح مستعمرة بريطانية عام ١٨٣٩ . وكانت اخر مستعمرة في الوطن العربي تحصل على استقلالها عام ١٩٦٧ . وتحاول هذه الدراسة التاريخ لهذه الفترة الاولى من الاستعمار البريطاني للمنطقة ـ والتي لم يسبق لها أن درست من قبل بالعربية أو الانكليزية ـ أن تبين أسلوب المواجهة التي كان يقوم بها الوطنيون العرب من اليمنيين ازاء السياسة الاستعمارية التي حاول البريطانيون اتباعها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ، في هذا الجزء الاستراتيجي الحساس من الوطن العربي . وهذا النموذج العربي اليمني للمقاومة هو في الواقع جزء من التصادم الحضاري العام الذي وقع في العصر الحديث بين الحضارتين الغربية والعربية الاسلامية ، عندما تعرضت المنطقة العربية للغزو الاجنبي . بمختلف اشكاله .

لم يبدأ الانجليز في فتح اول مدرسة في عدن الابعد مضي (١٧) عاما من استعمارهم لها . وحتى تلك المدرسة الاولى التي فتحوها عام ١٨٥٦ اغلقت أبوابها بعد سنتين فقط من وجودها . ولم يعد فتحها الا عام ١٨٦٦ ، بمعنى اخر فان الانجليز لم يفتحوا اول مدرسة ابتدائية الا بعد مضي ربع قرن من استعمارهم للمنطقة اليمنية . ومنذ البداية فقد كانت الاهداف من وراء فتح المدرسة سياسية وتبشيرية ومن أجل ((ان تثبت وتنتشر تأثيرها في طول وعرض اراضي الداخل ، ثم تجذب أبناء الرؤساء ليقيموا اتصالات مستمرة مع البريطانيين في عدن بالاضافة الى تخريج كتبة عرب للادارة البريطانية))(١) وفي أول كتاب رسمي أصدره مساعد

---

* اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠١ هـ ، ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١ م

المقيم السياسي البريطاني بشأن مستعمرة عدن عام ١٨٧٧ ، يشير الكاتب بأن من أهداف تأسيس المدرسة الاولى كان أيضا من أجل محاولة تخفيف كراهية اليمنيين وتعصبهم ضد البريطانيين . (٢)

وهذا هو وصف رسمي لحالة التعليم في عدن خلال عشر السنوات الاولى منذ بداية تأسيسه في عام ١٨٦٦ وحتى عام ١٨٧٥ : ((خلال العامين الاولين فان تقدم المدرسة لم يكن مرضيا بأن حال من الاحوال : فمعظم التلاميذ كانوا من ابناء جنود الوحدة الهندية في الجيش البريطاني المعسكرين في عدن . ولم يكن في سجل المدرسة سوى (٦) تلاميذ فقط من المدرسة ذاتها .. وخلال الاربع سنوات الاخيرة فان المؤسسة والتي تسمى (مدرسة الاقامة في عدن) اصبحت تضم تلاميذ من كل الطبقات والمذاهب . وقد بلغ مجموع التلاميذ عام ١٨٧٨ (٦٠) تلميذا وزعوا حسب جنسياتهم كالتالي فرس ٢٩ ، بانيان ٨ ، خوجة ٢ ، مهمن ٧، بهرى ٥، يهود ٣، عرب ٢٥ ، مسلمون هنود ١٥ ، مسيحيون محليون ٦ » (٣) . ومن هذه الارقام يلاحظ بالطبع قلة النسبة للتلاميذ اليمنيين في المدرسة (حوالي ٨٪) وايضا النشاط الواضح السياسة التبشيرية . فالمسيحيون المحليون لم يوجدوا في الواقع الابعد مجيء الاستعمار اي بعد تنصير يمنيين مسلمين سابقين . وعلى كل حال فان مدارس ومستشفيات الارساليات كانت من اوائل المؤسسات في عدن . كما ان عدنا كانت ركز الجمعية الماسونية في الجزيرة العربية حتى الاستقلال .

وبجانب هذه المدرسة الانجليزية فقد حافظ الاهالي على مدارسهم الوطنية الاسلامية الملحقة عادة بالمساجد . كما كان لليهود ايضا مدارسهم الخصوصية . وبالنسبة للوحدات والبطاريات العسكرية فقد كانت لها مدارسها الخاصة التابعة لها . واذا تابعنا تطور التعليم الحكومي خلال ربع القرن الاخير من القرن التاسع عشر فسنجد انه لم تضف سوى مدرستين عربيتين حكوميتين ابتدائيتين . كذلك فقد فتحت خلال هذه الفترة ايضا مدرستان تبشيريتان كاثوليكيتان . وقد بلغ عدد التلاميذ في الثلاث المدارس الابتدائية العربية في اواخر القرن – أي بعد استعمار نحو ستين عاما كاملا – (٢٥٦) تلمذا فقط . اما المدرسة الحكومية الانجليزية فلم يتعد عدد تلامذتها في اخر القرن (٨٨) تلميذا . اما بالنسبة للمنهج فقد ادخلت مادة مسك الدفاتر في المدرسة الحكومية الانجليزية بجانب الدروس المحتوية على التواريخ الابتدائية لانجلترا والهند وروما والكتاب الاول من اقليدس والجغرافية والحساب والجبر . كما ن حصص الدراسات القرآنية قلل منها في المدارس الحكومية العربية مقابل زيادة في المواضيع النفعية على مستوى ابتدائي .(٤)

وفي عام ١٨٩٧ بدىء بنظام مساعدة المدارس الخاصة . وقد بلغ مجموع

التلاميذ في المدارس الحكومية والتبشيرية والخاصة (١٧٦٨) تلميذا .ولم يزد عدد التلاميذ العرب في المدارس الانجليزية عن (١٦) تلميذا فقط ، كما ان عددهم في المدارس الاخرى كان يقل عن النصف . ويقول جافين ((ان التركيب العرقي للصفوف المدرسية قد عكس طبيعة التركيب السكاني لعدن ذاتها . اما النظام التربوي الذي كان سائدا فكان يقوم على أسس تقليدية .))(٥)

لقد كانت عدن هندية اكثر منها عربية في ذلك الوقت . وقد انعكس هذا الوضع على حالة اللغة العربية ومناهج الدراسة . ولم يستطع ان ينكر تلك الحالة المؤسفة البريطانيون أنفسهم . فعندما كتب مساعد المقيم البريطاني هارولد جاكوب كتابه (ملوك العرب) في مطلع هذا القرن ، وصف حالة التعليم والثقافة العربية في عدن كالتالي :

من الممارسات المؤسفة في عدن ان يستخدم الكثيرون اللغة الهندستانية . فعدن بسرعة تتهند كل يوم . فالاعلانات التي توضع أمام شبابيك مكاتب البريد هي بالهندستانية أو الجزراتية . وتبدو اللغة العربية وكأنها لغة اجنبية ، ومعظم المدرسين من الهنود ، والمدينة كلها قد نومت تنويما مغناطيسيا واصبحت كلها تعيش تحت نكهة بومبي .ان التاريخ العربي لا يدرس في المدارس الحكومية . فهل نخاف منهم اذا ما درسوا سيرة أبطالهم الوطنيين كما فعلنا مثلا في الهند في وقت من الاوقات عندما حظرنا عبادة شيفاجي ؟ فاذا كانت المدارس الحكومية في الهند الان تعلم الشباب احترام وتقديس شيفاجي ، افليس من الضروري للمؤسسات الخاصة في عدن ان تكون مدارسها الوطنية على نمط المدارس في الهند)) (٦)

بعد ادخال نظام الحماية في الثمانينات من القرن الماضي الى الارياف المحيطة بعدن بدلا من نظام الحماية فكر الانجليز باحكام قبضتهم اكثر على المنطقة من خلال (الدائرة العربية) التي كانت مكلفة بتسيس الشؤون القبلية هناك وذلك عن طريق مشروعي اقامة سكة حديد من جهة وبحاجة امس انشاء كلية لابناء السلاطين والمشائخ من جهة ثانية . فقد طرحت فكرة انشاء الكلية في عام ١٩٠٥ ،ثم أحييت القضية من جديد عام ١٩٢١ ولكن مآلها كان الفشل . وكما يقول الضابط السياسي البريطاني وقتها فان ((الفائدة السياسية من اقامة مثل هذه المؤسسة لتبرر دفع اموال الامبراطورية لفتحها . ان سياستنا في انشاء الكلية ستكون لها عواقب معينة وبعيدة المدى وليست عامة داخل محمياتنا)) ثم يسترسل ويقول :((ان الشباب العربي ينشأ وهو يجهل كل شيء الا الحروب القبلية التي يتشبع بها منذ طفولته .ومن الافضل ان نضع عليهم ايدينا وهم لا يزالون صغارا لان الشباب العربي يمتلك امكانيات كبيرة نستطيع توجيهها))(٧)

منذ انتهاء فترة الحرب العالمية الاولى وحتى انضمام عدن الى وزارة المستعمرات في لندن عام ١٩٣٧ تعاقب على ادارة المعارف في عدن ثلاثة من النظار الهنود المسلمين

استجلبوا من الهند وذلك بحكم ان النظام التربوي كان جزءا من النظام التربوي الهندي حيث كانت مدة الدراسة الابتدائية تتراوح بين ٤ـ٥ سنوات ثم تتبعها المرحلة الثانوية ، التي كانت تستغرق مابين ٥ـ٦ سنوات وفي نهايتها يتقدم الطلبة الى امتحان شهادة الجونير كامبردج والتي لم تكن تؤهل للالتحاق بالدراسة الجامعية او العليا . فماذا كانت حالة التعليم في هذه الفترة ؟ وهذا هو تقييم احد قادة الحركة الاصلاحية في اليمن . ففي عام ١٩٢٣ نشر الاستاذ محمد علي لقمان كتيبا باللغة الانكليزية تحت اسم مستعار بعنوان : « از ذيس اسكراب اف بيبر» (هل هذه قصاصة ورق ؟) (٨) انتقد فيه المؤلف حالة التعليم في عدن ، وذكر ان ٥٠٪ من اطفال عدن الذكور لايجدون مدرسة يؤمونها ، وهم يتسكعون في الاسواق ، والامية منتشرة بينهم بينما جزيرة سيشل وسكانها ١١٫٠٠٠ مقابل ٥٦٫٠٠٠ نسمة سكان عدن ، وتجارتها لاتوازي ربع تجارة عدن تتمتع بكلية ومدير معارف عام الى غير ذلك من تأخر عدن المحزن حتى انهالم تخرج طالبا واحدا يحمل شهادة البكالوريا الثانوية في (٨٤) سنة. ثم اضاف قائلا بأن الفوضى قد ضربت بحرانها في المدارس والكتاتيب . وكانت هذه المدارس على درجة العموم ضيقة ، مظلمة ، فاقدة أصول التهوية الصحية ، قذرة . وكان المعلمون أغبياء لايحمل احد منهم شهادة كفاءة ، رواتبهم حقيرة ، ومقامهم غير محسود . اما برامج التعليم فقد كانت تفتقر الى عدة عناصر هامة كالجبر والهندسة والصحة والجغرافية الطبيعية والعلوم . وكانت اللغة العربية أضعف مواضيع الدروس على الاطلاق . (٩)

اما مدير المعارف العام في بونا في الهند الذي زار عدن في عام ١٩٢٤ فقد كان من نصائحه ان يعفى اولاد الفقراء من دفع الرسوم وبأن تؤسس مدرسة عمومية للصنائع. ثم طالب في رفع مستوى التعليم وكذلك مستوى المعلمين وزيادة مرتباتهم لكي يتفرغوا لواجباتهم بدل الاعمال التجارية لتغطية المصاريف . ثم اضاف قائلا :« من العبث ان ننتظر وفاء واخلاصا من جماعة من الناس يخدموننا برواتب حقيرة» . ولان ارسال أول المبعوثين للدراسة الجامعية في الخارج قدتم في البداية اما بواسطة الاباء انفسهم أو الجمعيات الخيرية فقط ، فقد قال المسترلوري بان من واجب حكومة عدن ان تساعد اهاليها وتقدم لهم النصائح متى ارادوا ارسال اولادهم في بعثات الى الكليات والجامعات في الخارج خصوصا بعد اجتياز شهادة السينير كامبردج او بكالوريا لندن .(١٠)

وحتى اشهر هؤلاء النظار الهنود في هذه الفترة وهو الاستاذ عطا حسين فقد كان يعتقد ان غاية النظام التربوي في عدن « لم تكن تتفق والغرض الانساني العام . فقد كانت المدارس ترمي الى اعداد الطلبة للالتحاق بخدمة الحكومة . ولذا فان عددا

كبيرا من الشبان الذين لم تكن لديهم المؤهلات لهذه الخدمة وجدوا انفسهم مدفوعين الى البطالة بعد مغادرة المدرسة . وكانت الدروس لاتتعدى اللغة الانجليزية والحساب وقليلا من الجغرافية السياسية او تاريخ الهند السياسي او تاريخ الامبراطورية .ولم تكن المدارس تعنى بالثقافة العامة ، ولم تكن تعنى بتنمية الذكاء وشفوف الحس بين أبناء المدارس بتدريس الاداب والفنون الا قليلا . وكان الاهتمام بالغا حده في تشجيع الحفظ بصورة ميكانيكية والترديد المقيت لايكسب الطالب شخصية مستقلة . وكان من رأيه ان تمنح المعارف في عدن ابناءها تعليما تحرريا . »(١١)

وفي ايام هذا الناظر الجديد (١٩٢١- ١٩٣٠) أدخل نظام التعليم في المراحل الاولى من المدرسة الثانوية الوحيدة باللغة العربية . وعين اول مساعد عربي له من فلسطين هو الاستاذ طاهر حمزة . وقد قدم الاستاذ حمزة جهودا طيبة في سبيل ترقية الادب العربي واللغة العربية . « فسعى لنشر محاسنها ودعا المعلمين لتعليم النحو واللغة » . وكان هذا الفلسطيني اول من نصح بفتح اول مدرسة ابتدائية للبنات(١٢) . وفي أيام هذا الناظر الهندي أيضا عين الاستاذ كامل عبدالله صلاح، أحد رجال الدين المشهورين من الحجاز مديرا للمدرسة الحكومية الابتدائية ، فأدخل التعليم الديني لاول مرة ، الا انه لم تكن تعطى علامات للمادة في نتائج الطلبة .

والحقيقة ان هذه الخطوات التي اتخذت في طريق الاهتمام باللغة العربية لم تأت الا نتيجة مطالبة مستمرة من قبل اليمنيين الذين كانوا يشعرون كالغرباء في مدارسهم . وقد سجل لنا احد الحكام البريطانيين في مطلع الثلاثينات من هذا القرن هذا الحديث المرير مع أحد أعيان عدن حول الحالة التعليمية والثقافية انذاك . قال الشيخ اليمني للحاكم البريطاني مايلي :

« ماذا عملت لنا الهند ؟ لاشيء . متخلفون ، متخلفون جدا ، والذنب ذنب الهند تماما . ان التعليم ضروري ، ضروري لكل الشعوب ولنا بدرجة اكثر من الجميع لاننا لانملك شيئا منه . لقد رايت المدارس بنفسك ، ورايت الهنود الذين يقومون بالتدريس أين العرب المدرسون ؟ آه ! اعرف انك ستجيب بأن علينا ان نصبر لانه ليس عندنا في عدن ، وانه في الامكان جلبهم من البلدان العربية الاخرى ، وانه الى ان يكون لنا مدرسون قديرون للغتنا فلن نحرز اي تقدم . ان أحد اولادي الذي يدرس حاليا في ادنبرة ، قد فشل في الامتحان وان المادة التي فشل فيها كانت اللغة العربية .ان الامر مخز ومن اجل ذلك الخزي يجب ان نشكر الهند . نحن لسنا جزءا جغرافيا من تلك البلاد ولسنا شعبا واحدا ، ولانتكلم لغة واحدة . » (١٣)

ان المطالب اليمنية انذاك والتي كانت بسبب عدم وجود الاحزاب السياسية او الصحافة تعبر عن نفسها عن طريق النوادي وخاصة الاصلاحية فيها ، لم تقتصر على المطالبة بوجوب الاهتمام باللغة العربية واعداد المعلمين الوطنيين ، وانما شملت أيضا

المطالبة بالاستقلال عن الهند والتبعية مع لندن . فمنذ «العشرينات من هذا القرن ، وبسبب امكانية استقلال الهند بدأ الانجليز يعملون تدريجيا على محاولة سحب عدن النهائي من تحت الحكومة الهندية . وبدأت اصوات المسؤولين ترفع الان شعـــار ان عدن عربية وان مستقبلها مع أهل الجزيرة وليس مع الهند . وهذا الاتجاه الجديد أثار بالطبع مخاوف الهنود، مسؤولين وتجارا وموظفين، لان تحويل عدن من تحت الهند لن يكون في صالحهم » . (١٤) وكانوا يسخرون من فكرة اعداد معلمين وطنيين ويظنون « ان ابناء عدن تشربوا بالمبادىء السياسية المتطرفة » . (١٥)

وكانت الاصوات ترفع أيضا من قبل الاباء ورجال الاصلاح بأن « طلبة المدارس يعيشون في وسط يفسد عادة ماتصلحه المدرسة». كما طالبوا بالحاح «في أن ترقى الرياضة البدنية في المدرسة رقيا مطردا وتصبح اجسام الطلبة قوية صحيحة »وكانوا يستغربون عدم تدخل ادارة المعارف في القضايا التي تمس اخلاق الطلبة وتربيتهم كالسينما .« فالافلام السينمائية الهندية التي تعرض على الاطفال افلام تجارية تعرض الوان السحر والشعوذة والدجل . وتعرض صنوف النهب والسلب والاغراء » . (١٦)

اما ارسال أولى البعثات الدراسية الى الخارج فلم يكن للحكومة فيه نصيب وانما تم كل ذلك بواسطة النوادي الثقافية والجمعيات الاصلاحية والآباء . لقد كان نشوء الجمعيات والنوادي الثقافية في عدن مباشرة بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى متأثرا الى حد كبير بالحركة الاصلاحية التي كانت قائمة انذاك في بعض البلدان العربية كمصر وسورية ولبنان وفلسطين . ففي عام ١٩٢٥ زار عدن الاستاذ عبد العزيز الثعالبي واقترح تأسيس ناد ادبي عربي فيها . فتأسس (نادي الادب العربي) برئاسة الشاعر والمؤرخ والفنان المشهور الامير أحمد فضل القمندان . وكان مديره الاستاذ محمد علي لقمان . ولما انتشر وباء الجدري والطاعون في عدن مابين عامـــي ١٩٢٧ ــ ١٩٢٩ قام اعضاؤه بجمـــع التبرعات الكبيرة للمرضـــى . وفي الاخيـــر اقتصرت أعمال النادي تقريبا على الحفلات التكريمية واستقبال الشخصيات العربية عند زيارتهم لعدن . والحقيقة انه يمكننا ان نرجع بوادر الوعي الثقافي في عدن الـــى قبل نشوء (نادي الادب العربي) ، وبالذات الى مستهل القرن العشرين . لقد كان الشعور الاسلامي قويا بين أوساط سكان عدن في مطلع هذا القرن وذلك بحكم تداولهم آنذاك للصحف والمطبوعات العربية . فلم ينته الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ الا وكان الناس يتداولون الصحف المصرية ، ثم يتجادلون في قضية السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقي . (١٧)

وفي عام ١٩٢٩ تأسس (نادي الاصلاح العربي) ، ثم تبعه في عام ١٩٣٠ (نادي الاصلاح العربي الاسلامي) وانضم اليه الجم الغفير من الوجهاء والشبان . وكان من

اهداف هذا النادي العمل لرفع مستوى الاخلاق ونشر العلم وتنشيط المعارف . كما ان اعضاء النادي « سعوا للاتصال برجال العرب في جميع اوطانهم وشادوابذكر ماكان للعرب من مقام في التاريخ واثاروا الرغبة الكامنة في النفوس باحياء أيام العرب ونشر محاسن الاسلام » .(١٨) وقد افتتح اعضاء نادي الاصلاح العربي مدرسة في الشيخ عثمان وكان يديرها العلامة الشيخ المعروف احمد العبادي الوهابي النزعة. وقد تخرج على يديه خاصة من حلقاته الخاصة اشهر علماء عدن . وقد الف الشيخ العبادي منظومة علق عليها الشيخ البيجاني اسمها (هداية المريد الى سبيل الحق والتوحيد) طبعت في مصر ونشرت في عدن وغيرها من الاقطار الاسلامية في سنة ١٩٣٩ . وقداحتوت المنظومة على حقائق علمية تحث على توحيد الخالق وتنهى عن البدع والخرافات وانواع الشعوذة . وقد اثارت افكار العبادي بعض العلماء التقليديين فحاولوا قتله عند باب مسجده .

وقد سبق ان تعرض للقتل في عمان بعد ان الف منظومته (السهام الدقيقة على كشف الحقيقة) خالف فيها الاباضية والخوارج . والحق فقد كان « دور العبادي في ايقاظ الفكر الديني وفي مجال التربية والتعليم وفي مضمار النشاط الاجتماعي ومناهضة الاستعمار دورا بارزا » .(١٩)

ومن الامور الطيبة التي قام بها (نادي الاصلاح العربي الاسلامي) هو ان رئيسه كتب عام ١٩٣٦ كتابا طويلا الى غازي الاول ملك العراق شرح فيه حاجة اهالي عدن الى مثقفين وطلب منه ان يقبل عشرة من ابناء عدن ليلتحقوا بمدارسها . فقبل الملك غازي بذلك وسافرت اول بعثة دراسية الى العراق في ذلك العام مكونة من ثمانية اعضاء ، ثم لحقتها بعثتان فيما بعد الاولى الى العراق وعدد اعضائها خمسة والاخرى الى مصر وعددها ثمانية .(٢٠)

ثم قامت جمعيات ونواد اخرى . وكانت معظم هذه النوادي الثقافية تهدف في البداية الى «الالتفاف حول رئيس والتفاني في طاعته لخدمة هذا الوطن البائس ، وتأليف وحدة عربية اسلامية توعو الى الحث على مكارم الاخلاق ، ورفع مستوى البلاد ، والوعظ المستمر في المساجد والنوادي ، ومقاطعة السكارى وتشجيع التمثيل الحر ، وايجاد العمل للعاطلين ، والدعوة لتشجيع الزواج ، وتخفيف مهور البنات، ونشر العلم ومطالبة الحكومة بتسهيل الوصول اليه وتعليم البنات ...)) كما ان بعض أعضائها كانوا يعطفون على القضية العربية ويرون فيها الشفاعة الكبرى . ويحدبون على الام العرب وامالهم ويجمعون بين فترة واخرى التبرعات لمنكوبي الزلزال في فلسطين والمنكوبين بالطليان في طرابلس ، ويكرمون رجال العرب الذين يزورون عدن. وأهم ماأحدثته هذه النوادي هي اليقظة التي شعر بها الناس عموما في هذا البلد

والوعـي القومي الـذي تغلغل في نفـوس بعض المخلصيـن فاكسبهم روحـا وطنية امنت بحقها فقامت تسعى له . (٢١)

وعندما زار الكاتب المجري لاديسلاز فاراجو عدن عام ١٩٣٧ ترك لنا وصفا دقيقا للحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية فيالمستعمرة وذلك في كتابيه (العربـي الغريب)و(لغز بلاد العرب) يقول فاراجو : « اخذني على ـ دليل المؤلف ـ الى كثير منالنواديالعربية ، وبدأت اعيش حياة المثقف العربي . ففي عدن يوجد اكثر من ١٢ ناديا من هذه النوادي ، الا ان اهمها هو (نادي الادبالعربي) ..وكانت السياسة محظورة رسميا فيهذه النوادي ، وقد اصر كثير من اصدقائي العرب بأن القصد منها كان للاغراض الاجتماعية فقط . ومع ذلك فان يقظة الفكر السياسي العربيفيعدن قد تشكلت في هذه النوادي . فالمناقشات كانت دائما تدور حول مواضيع مثل التأثيـر المتنامي لايطاليا في شمال افريقيا والبحر الاحمر . ومعاناة العرب في فلسطين .. وكانت جدران هذه النوادي التي تدعي انها نواد غير سياسية مغطاة بشـعارات سياسية صارخة امثال «بلاد العرب للعرب» او «ياعمال بلاد العرب اتحدوا»أوبصور مثيرةمنزوعة من صحف مصرية تبين اعمال ارهاب يمارسها جنود احدى الدول الاوروبية ضد عرب يعذبون .. وفي الشوارع الضيقة للسوق في عدن قابلتممثليـن لكل البلدان العربية تقريبا . لقد قابلت لاجئين من سوريا وتونس وليبيا ومصر والسعودية وفلسطين .. ومن بين الهاربين من بلاد العرب وجدت لاجئا من العائلة المالكة الهاشمية هو السيد الدباغ . وبالباقي من ثروته الضخمة يقوم الان بالصرف على مدرسة عربية في عـدن وكتابة رسائل لاحصر لهاالىالسعوديةلتنوير اصدقائه . وقد رافقت السيد الدباغ الى محاضرة عربية حيث قام احد اللاجئين التونسيين بتقريع الفرنسيين ، وبعدها في المساءذهبت الى اجتماع حيثقام عربي منمقاديشو ، لاشك أنه كان مأجورا ايطاليا ، يتكلم عن بركات الفاشية ودعا موسوليني بـ « سيف الاسلام » (٢٢)

كما اننا نجد المجلات العربية تنتقد السياسة التعليمية في عدن . فمثلاكتبت (مجلة الرابطة العربية) في عام ١٩٣٨ مانصه : « لايزال مدير المعارف في عدن يقتل الروح الاسلامية العربية في مدارس الحكومة بكل الوسائل ، وجل جهوده ومراميه ان يكون برنامج المدارس استعماريا صرفا ... واشتد النكير والتضييق على الـمدارس الاهلية سيما مدرسة الفلاح الاسلامية العربية المعروفة بنزعتهاالوطنية الصادقة في تعليمها واناشيدها خاصة بعد حادثة الرحلة التي قامت بها بعثة الفلاح في أراضي لحج ويافع » (٢٢) ان اهم ما فعلته تلك النوادي والجمعيات كان يتعلق بمجال التعليم

وبالذات ارسال البعثات الى الاقطار العربية-الاخرى على حساب حكومات تلك الاقطار فمثلا من الرسالة التي وجهها رئيس نادي الاصلاح العربي الاسلامي الاستاذ احمد الاصنج الى الزعيم السوداني عبد الرحمن المهدي عام ١٩٣٧ نلمس الشكوى العامة من ضعف مستوى التعليم والثقافة العربية في المستعمرة . تقول الرسالة :

«.. وبعد فاني ارفع الى فضيلتكم ان عدن كما تعلمون الثغر الطبيعي لليمن كلها من اقصى العربية السعيدة غربا الى اخر حضرموت شرقا ، والاكثرية الساحقة من سكانها عرب مسلمون .

ابناء العرب في هذه الديار في ديجور حالك من الجهل ، والتعليم هنا على وجه العموم لايسمن ولايغني حيث يخرج الطالب من المدرسة الثانوية لايحسن العربية (وهي لغته) ولا يجيد الانجليزية (وهي اللغة الرسمية) . وكل ما هنالك علوم سطحية لاتقوم بالحاجة . ويكفي ان أقول انه لايوجد في عدن كلها طبيب او مهندس او محامي ولااستاذ في التربية والتعليم من ابناء العرب . ولهذا فقد استحوذ على مرافق البلاد وخيراتها الاجانب واصبح العربي فيها ليس الا غرا جهولا ، يقاسي الام الجوع والفاقة لهذا راينا ان لا سبيل الى انتشال ابناء المسلمين من هذه الهوة السحيقة الا بالعلم فالتجينا الى ملوك المسلمين وعظمائهم من اهل الفضل ، فكان ان قبلت حكومة جلالة ملك العراق المعظم عددا من الطلاب يتلقون لعلم في العراق على نفقتها كون الطلبة من الفقراء ، كما ارسلنا البعض الى الهند ايضا ، وهانحن اليوم في مخابرة مع حكومة جلالة ملك مصر المعظم بهذا الصدد .

ولما كنتم فضيلتكم من زعماء المسلمين المعدودين ، ومن الذين اشتهروا باعمال البر والاحسان ، ترانا نتقدم الى فضيلتكم بهذا الالتماس راجين من مكارم اخلاقكم بأن تفكروا فيما نقاسيه من الويلات ، وان تمدوا لنا المساعدة في انقاذ شباب المسلمين بأن تتقبلوا بقبول عشرة من ابنائنا ليتلقوا علومهم العربية والانجليزية في كلية غردون أو في اية مدرسة او جامعة تختارونها فضيلتكم في السودان او مصر .» (٢٣)

واذا اخذنا اعداد الطلبة الموجودين في مدارس عدن في منتصف الثلاثينات ، اي قبيل انضمام عدن الى وزارة المستعمرات ، وبعد مضي حوالي مئة عام من الاستعمار أو التبعية للهند ، سنجد انها كانت قليلة للغاية : فالمدارس الابتدائية الحكومية في المستعمرة لم تزد عن (٤) مدارس ، اما المدارس الابتدائية المعانة فكانت (٦) مدارس فقط . وكان مجموع طلبة هذين النوعين من المدارس اقل من (١٦٦٦) تلميذ . اما تلامذة الكتاتيب او المدارس غير المعترف بها بما في ذلك بعض مدارس الاقليات فكانت حوالي الالفين (٢٤) ، كما ان طلبة الثلاث مدارس الانجلو — محلية (أي ذات الاقسام الثانوية) لم يزيدوا عن (٢٠٠) طالب . وكانت الدراسة في هذا النوع الاخير من المدارس فيما عدا الثلاث صفوف النهائية تعطى بواسطة لغة الطلبة التي يتكلمونها كالعربية والجزراتية . وعلى الرغم من ان السكان العرب كانوا هم الغالبية فانهم كانوا من حيث اعداد الطلبة اقل تمثيلا من بقية الجاليات كالهنود واليهود . اما ماكان

يصرف من ميزانية المستعمرة الضئيلة على التعليم فلم يتعد نسبة ٥٪(٢٥) .

وقبل ان تنتقل عدن الى التبعية المباشرة لوزارة المستعمرات في لندن في عام ١٩٣٧ ، نجد ان الانجليز قد استطاعوا في الاخير تحقيق هدفهم الذي استمر يراودهم منذ احتلالهم لعدن ، وهو انشاء (كلية ابناء الرؤساء) أو (مدرسة جبل حديد) في عدن . والحقيقة ان تبعية المحميات لوزارة المستعمرات كانت قد سبقت عدن بعشر سنوات وذلك عام ١٩٢٧ . ومنذ ذلك الحين بدىء في تكثيف السياسة البريطانية وتدخلها المباشر في الارياف . فمن ناحية سياسية اصبح للمحميات جهاز سياسي قوي ، تطور فيما بعد الى داري الاعتماد والاستشارة في كل من المحميات الغربية والشرقية ، ومن ناحية عسكرية انشأ الانكليز قوات جديدة تمثلت (بجيش الليوي) و(الحرس القبلي) و(الحرس الحكومي)وذلك لخدمة تنفيذ سياستهم الجديدة ومن اجل تعزيز ودعم سلطة الامراء والسلاطين .

وكانت تلك القوى الثلاث تعمل وتتبع سلاح الطيران البريطاني وداري الاعتماد والاستشارة(٢٦) ثم اضيف الى هذين الجهازين السياسي والعسكري المكلفين باخضاع الارياف جهاز ثالث هو الجهاز التربوي السياسي الذي تمثل بـ (كلية ابناء الرؤساء) وقد تم افتتاح تلك الكلية في عدن في ابريل ١٩٣٥ .

وكما قال المستشار البريطاني المقيم المكلف برسم سياسة تلك الكلية والاشراف على فتحها فان ما كانوا يريدونه « رئيسا يجب ان لايكون متعلما تعليما عاليا » ،ولم يكن المطلوب اعطاء خريجيها « ثقافة ادبية عالية وانما فقط ما فيه الكفاية من اللغة الانجليزية تمكنهم من الاتصال بضباط سلاح الطيران الملكي والزوار الاخرين الذين لا يعرفون العربية » اما المستوى المطلوب للعربية « فهو ان يكون بمقدور التلميذ كتابة رسالة مفهومة »(٢٧) اما بالنسبة لمدير ومدرسي المدرسة فقد جلبوهم خصيصا من السودان وجزيرة زنجبار في شرق افريقيا لانهم « يمتلكون الادراك لفهم الهدف من وراء المدرسة » . كما قال انجرامز .

ان اهمية انشاء كلية ابناء الرؤساء بالنسبة لسياسة اخضاع المحميات كان كبيرا . فمن المقدمة الجديدة التي نشرها انجرامز لكتابه بعد مضي حوالي(٢٥) عاما على طبعته الاولى ، تبين لنا بأن انجرامز قد هدد بالفعل السلطان الكثيري بمغادرة البلاد مالم يواصل اولاده دراستهم في كلية ابناء الرؤساء . كما ان تهديده للسلطان بمغادرة حضرموت قد جعل بعض انصار المستشار البريطاني من الحضارم رؤساء القبائل يعرضون عليه فكرة تنحية السلطان الكثيري وتنصيب انجرامز نفسه سلطانا على الدولة الكثيرية في منطقة حضرموت !(٢٨) وكما يقول مؤلف كتاب (لغز بلاد العرب) الذي زار الكلية عام ١٩٣٧ فان تلك المدرسة كانت تعد حوالي « اربعين سلطانا محتملا

لوظائفهم كحكام في المستقبل » . ثم يضيف الكاتب قائلا : « وكانت نظرية المستر الجرامز (المستشار البريطاني المقيم) هو انه سيكون اسهل بان تحكم البلاد اذا مانشىء الحكام المحليون الى طور الرجولة تحت التأثير المباشر لبريطانيا » (٢٩)

ان حكومة المستعمرة لم يكن لها يد في ارسال البعثات الى الخارج خلال تبعية عدن للهند . وكذلك كان حالها في السنوات الولى من تبعيتها المباشرة لوزارة المستعمرات فالاربعة الجامعيون الذين عادوا الى عدن بنهاية هذه الفترة كان قد تم ارسالهم من قبل ابائهم او الجمعيات التبشيرية أو بجهودهم الخاصة . فقد تخرج احدهم كطبيب من بريطانيا بعد ان تم تنصيره (احمد سعيد عفارة) والثاني كمهندس (محمود مكاوي) والثالث بكالوريوس اداب من الجامعة الامريكية في بيروت (محمد عبده غانم) . اما الرابع (المستر حسين حمود) فقد تخرج في الطب الطبيعي او الشعبي من « جوامع الهند »(٣٠) وبالنسبة لمبعوثي الجمعيات الاصلاحية والنوادي الثقافية الى العراق ، ومصر والهند فسنراهم يتخرجون بانتهاء الحرب العالمية الثانية ، اي بعد حوالي عشر سنوات من انتهاء هذه الفترة التي نتكلم عنها

والحقيقة ان التعليم بعد تبعية مستعمرة عدن للندن عام ١٩٣٧ لم يتقدم تقدما كبيرا كما كان متوقعا وذلك على ضوء اعلان بريطانيا بانها قد خصصت مالية خاصة برفاهية المستعمرات . وبالطبع فان جهود النوادي والجمعيات الاصلاحية والثقافية لم تتوقف عند ارسال البعثات فقط وانما شملت ايضا نقد السياسة التعليمية البريطانية الجديدة . ففي عام ١٩٤٠ وجه (نادي الاصلاح العربي الاسلامي) مذكرة الى حاكم المستعمرة موقعة من قبل ١٧ عضوا من أعيان عدن يمكننا ايجازها كمايلي:

(١) رفع مستوى التعليم في عدن لدرجة عالية تمكن بها الطلاب من ابنائها من الاندماج في الجامعات الكبرى للطب والهندسة وغيرهما .

(٢) ارسال الطلبة من عدن لطلب العلم في الخارج على نفقة الحكومة .

(٣) تعليم الكيمياء والعلوم للطلبة في عدن .

(٤) تعليم الطلبة الى مستوى يؤهلهم لطلب درجات عالية غير « المكرانة » (بمعنى الوظائف المكتبية) .

(٥) انشاء مدرسة للصنائع والفنون

(٦) انشاء كلية عدن .

(٧) تطوير مدرسة البنات بحيث يتعلمن التطريز والخياطة وترتيب المنزل والصحة .

ومن رد الحاكم البريطاني بمذكرته المطولة (رقم ٥٤٣٤ بتاريخ ١٥ اغسطس ١٩٤٠) نجد ان تبريرات الحكومة في عدم استطاعتها تحقيق المطالب المذكورة اعلاه هي في الواقع بمثابة اعتراف منهم بانهم لم يقوموا بشيء ذي بال في طريق تطوير التعليم بعد انفصال عدن عن الهند (٣١) .

وبانتهاء هذه الفترة ساعدت عوامل خارجية وداخلية على اجهاض هذه النوادي الثقافية والجمعيات الاصلاحية . فالحكومة الاستعمارية نفسها لم تكن ترضى عن نشاطها . لهذا فاننا نجدها اثناء الحرب العالمية الثانية تقوم بنفي بعض الاعضاء البارزين من منطقة الى اخرى في المستعمرة وتفرض عليهم الاقامة الاجبارية هناك متهمة اياهم بالتعاون ونشر الدعاية لصالح دول المحور . كما انها كانت تتمكن ، عبر بعض الرجال التقليديين من نشر الاشاعات بان « مقاصد واغراض تلك الجمعيات هي غايات سياسية لاخير لاحد في اعتناقها . . وقال اخرون ان تعليم البنت وتشجيع التمثيل امران مخالفان للدين والعقائد الاسلامية »(٣٢) . وكما قال احدهم بحق « ان الرجعية في كل زمان اداة هدامة في صرح القومية وبناء الوطنية تنسب لكل حركة جديدة ترمي الى الاصلاح وتسعى للوعي القومي كل نقيصة » (٣٣) .

اما بالنسبة لحركة النشر والصحافة خلال هذه المئة سنة الاولى من الاستعمار البريطاني لعدن ، فقد كانت كل المطبوعات والجرائد باللغة الانجليزية او الجزراتية او العبرية ، وقد استوردت تلك المطابع الاجنبية الاحرف العربية لغرض مواجهة الطلبات المتنامية للطباعة عند التجار العرب او من اجل طبع بعض الاوراق والمعاملات المحلية . ومن الطريف ان نذكر ان دخول اول مطبعة انجليزية الى عدن كان في عام ١٨٥٣ ، ففي تلك السنة طلبت الادارة البريطانية في المستعمرة مطبعة صغيرة كجزء من « الاعمال الشاقة» في سجن عدن . وارسل بعض نزلاء السجن الى بومباي للتدريب على صف الحروف والطباعة . وبعدعوتهم طلب منهم تدريب بعض نزلاء السجن الاخرين . اما الجرائد فكانت كلها انجليزية (ايدن وييكلي جازيت، ايدن فوكس، استار ، ايكو . . الخ) . وكانت اهم المؤسسات الطباعية العربية هي مطبعة (فتاة الجزيرة) لصاحبها الاستاذ محمد علي لقمان المحامي التي افتتحت عام ١٩٤٠ . وكانت أول مطبعة تضيف النشر الى انشطتها الاخرى في عدن . فقد كانت تقوم بطبع (فتاة الجزيرة) اول صحيفة عربية في عدن ، بالاضافة الى عدد من النشرات اليومية والاسبوعية باللغتين العربية والانجليزية بجانب كتب وكتيبات عربية حول مختلف المواضيع . واول كتاب عربي طبعته « سلالة قحطان »(٣٤) .

المصادر والهوامش

1 — R.J.Gavin. **Aden under British Rule 1839-1967**. London, Hurst, 1975, p. 192

2 — F.M.Hunter. **An account of the Biritish Settlement of Aden**, London, cass, 1877, p. 148

3 — **Ibid**. pp. 149-151

4 — Gavin. **op. cit**. p. 193.

5 — **Ibid**.

6 — H. Jacob. **Kings of Arabia**. London, 1939, ch. 14 « The eye of the yemen in 1923. »

7 — **Ibid**.

(٨) ظهر الكتيب تحت اسم مستعار للمؤلف هو NEDA وهو قلب لإسم عدن ، اما الناشر فتحت اسم Junius

(٩) محمد علي لقمان .. النهضة الحديثة في عدن (٤) فتاة الجزيرة ، العدد ٢٢٦ ، ١٨ يونيو ١٩٤٤ ، ص ١ — ٨ .

(١٠) المصدر ذاته .

(١١) محمد علي لقمان . النهضة الحديثة في عدن (٧) فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٤ ، ١٣ اغسطس ١٩٤٤ . ص ١ — ٨.

(١٢) النهضة الحديثة في عدن (٩) فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٦ ، ٢٧ اغسطس ١٩٤٤ ، ص ١ — ١٢.

13 — Sir Tom Hickinbotham. **Aden**. London, Constable, 1958, pp. 20-21

(١٤) سلطان ناجي (ترجمة) عدن تحت الحكم البريطاني ١٨٣٩ — ١٩٦٧ . مجلة الخليج العربي ، مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، العدد ٨ ص ٥٠ — ٨٠ .

(١٥) النهضة الحديثة في عدن (٩) فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٦ ، ٢٧ اغسطس ١٩٤٤ ، ص ١ — ١٢.

(١٦) مراحل التعليم في عدن . فتاة الجزيرة ، العدد ٢٠٢ ، يناير ١٩٤٤ ، ص ٦ — ٧ .

(١٧) محمد علي لقمان . عدن بعد الاحتلال البريطاني . فتاة الجزيرة (٢) العدد ٢٢٣ ، ٢٧ مايو ١٩٤٤.

(١٨) ماذا عملت النوادي . فتاة الجزيرة (٢) العدد ٢٣٢ ، ٣٠ يوليو ، ١٩٤٤ ، ص ١—١٢ .

(١٩) محمد سعيد جرادة . دور المبادي في مناهضة الاستعمار . مجلة الحكمة (لسان اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين) العدد ١ ، ١٩٧٠ ، ص ٤٧ — ٥٢ .

(٢٠) ماذا عملت النوادي . (من الجدير بالذكر انهم كانوا هناك اثناء وجود بعثة صنعاء التي كان فيها الرئيس السلال) .

(٢١) المصدر ذاتــه

22 — Ladislas Farago. **The Riddle of Arabia**. Robert Hale, 1939, pp. 75-83

(٢٢) العدد ١١٧ بتاريخ ١٤سبتمبر ١٩٣٤ .

(٢٣) نسخة الرسالة المؤرخة ٢٨ رجب ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧) موجودة ضمن ملف (نادي الاصلاح العربي الاسلامي)وهو في حوزتي . والاستاذ احمد الاصنج هو مؤلف (نصيب عدن من الحركة الفكرية) اول كتاب فكري في عدن، مطبعة الشورى القاهرة ١٩٣٤ .

24 — Aden gov't, Annual Report 1931 - 32.

25 — Gavin, op. cit. pp. 287-290.

(٢٦) سلطان ناجي . التاريخ العسكري لليمن ١٨٣٩ — ١٩٦٧ . الكويت ، ١٩٧٦ ، ص ٧٠ ، ١٤٢، ١٥٠، ٥٦٤، ١ .

27 — H. Ingrams. **Arabia and the Isles.** London. J. Murray, 1942, pp. 95-99

28 — author's «**Introduction to third editon**». J. Murray, 1966. pp. 31-32.

29 — Ladislas Farago. **The Riddle of Arabia.** Robert Hale, 1939, pp. 190-92

(٣٠) انظر قالمة ـ اولعدني في فنه ـ . فتاة الجزيرة ، العدد ٢٠٢ يناير ١٩٤٤ ، وايضا : راجي خير نحن لانريدادباء) فتاة الجزيرة ، العدد ٢١٨ ، ٢٣ ابريل ١٩٤٤ .

(٣١) كلا المذكرتين موجودتان في ملف نادي الاصلاح العربي الاسلامي الذي هو الان في حوزتي .وكلتاهما مكتوبتان بالانجليزية . ومذكرة نادي الاصلاح مؤرخة ١٦ ابريل ورد الوالي في ١٥ اغسطس ١٩٤٠ .

(٣٢) محمد علي لقمان . النهضة الحديثة في عدد (٦): ظهـور النوادي . فتـاة الجزيرة ، العدد ٢٣٠ ، ١٦ يوليو ١٩٤٤ .

(٣٣) محمد علي لقمان . ماذا عملت النوادي ، فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٢ ، ١ — ١٢ .

34 — Ali M. Lukman. « Education and press in South Arabic». in « The **Arabian Peninsula : Society and Politics** ». ed. D. Hopwood. George Allen. 1972, pp. 264-5.

—*—